

هندسة العمران القرآني: العمق المعرفي والحركي للشبكة الاجتماعية □□ النهوض بالراشد



الأربعاء 2 سبتمبر 2026 10:00 م

كتب: أ. د. سيف الدين عبد الفتاح

أ. د. سيف الدين عبد الفتاح
أستاذ النظرية السياسية والفكر السياسي الإسلامي

يمثل مفهوم "شبكة العلاقات الاجتماعية" في النسق القرآني أعظم وأشمل هندسة معرفية وحركية عرفها الفكر الإنساني؛ فهي ليست مجرد تجمعات بشرية عفوية أو روابط مصلحة نفعية، بل هي نسق عضوي متساند، وقانون انتظام سنني فاعل، وجهاز تشريعي متكامل، خلقه الله ليحرر الإنسان من أسر الفردية المدمرة واستبداد التذمر والانقسام، ويقيم في مقام الشهود الحضاري والكرامة الاستخلافية.

مربع الآيات الحاكم: التشريع القرآني الأبدى لشبكة العلاقات الاجتماعية □ في خضم تتبع الينابيع الكبرى التي تُؤسس لشبكة العلاقات الاجتماعية الراشدة، يبرز "مربع الآيات الحاكم" في محكم التنزيل باعتباره الدستور الإستمولوجي والتشريعي الأجل الذي تنطوي تحت لوائه كل مفاهيم الوصل، والتعاقد، والتكامل □ فإذا كانت الأمثال النبوية (الجسد، البنيان، السفينة) قد جسدت هذه المعاني حركيًا وبصريًا، فإن هذا المربع القرآني الرباعي يمثل القانون الكلي الناظم الحاكم الذي تنبثق منه هندسة المجتمع الراشد، في تضاد تام مع "شبكة الطغيان الفرعوني" القائمة على التفريق والفرقة؛ والتشتيت والتجزئة؛ والاستخفاف والتبعية؛ والقابلية للاستبداد والتعبيد والعبودية.

الركن الأول: قانون الوحدة والاعتصام الأبدى والانتظام السنني: "وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا" (آل عمران: 103).

هذا النداء القرآني الجامع يمثل القانون الدائم والقائم لالتئام شمل الأمة؛ الجامع لنداء حركي قرآني بين أمر ونهي:

-فاعلية الوصل لا قسوة القهر ولا ظلم وقابلية الاستخفاف؛ فالاعتصام ليس تمحورًا حول زعيم بشري طغياني كاسح أو استبداد طبقي جامح (كما في نموذج فرعون)، بل هو ارتباط بحبل الله المطلق، وهو ما يحرر الأفراد من عبودية الاستلاب إلى رحاب الحرية المسؤولة؛ وتمكين الطاقات الفاعلة والقدرات العاملة.

-الشمول الجماعي في النجاة: في قوله "جَمِيعًا" إبطال قاطع لفكرة النجاة الفردية المنعزلة؛ فالأمة إما أن تنجو معًا في مركب واحد وسفينة واحدة أو تغرق جميعًا □ "إن أصغر خرق" كما يقول الرافعي "يعني أوسع قبر"، مؤكدًا أن تماسك الشبكة الاجتماعية يبدأ من توحيد البوصلة والاعتصام بالمرجعية الكبرى "حبل الله المتين المفضي الى مناهج ومسالك التمكين".

الركن الثاني: النداء الحركي الواقعي من الفشل والانكسار (ولا تفرقوا): "وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ" (الأنفال: 46).

يأتي هذا التوجيه في ثوب النهي الصارم ليؤدي وظيفة الدرع الاستراتيجي لحماية حركة الأمة من التآكل الداخلي واستمراء التنازع والفشل وانعدام الفاعلية (عقلية ونفسية الهوان والمهانة والوهن وقبليات الإهانة):

-الأمر بصيغة النهي (حراسة الطاقة الكلية): إن التنازع والتشاحن ليس خلأً فكريًا عابرًا، بل هو "قارض اجتماعي" يبتلع رصيد الأمة وقوتها.

-الحفاظ على ربح القوة: فذهاب "الريح" يعني تبدد الزخم الحضاري، وسقوط هيبة الأمة، وتصعد شبكتها العلائقية، لتصبح لقمة سائغة لكل طامع، تمامًا كما تفعل استراتيجية فرعون في "جعل أهلها شيئًا".

الركن الثالث: المحرك المدني العمراني والحضاري للتعاون؛ ورفض مضاداته: "وَتَعَاوُنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوُنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ" (المائدة: 2).

هذا النداء الحضاري الثالث يمثل ميدان الفعل الإيجابي في شبكة العلاقات وميزان العمل الدائم لاستثمار القدرات والطاقات:

-توجيه الطاقة المجتمعية نحو البناء: التعاون ليس شعلاً نظرياً، بل هو حركة دائبة لتفريغ الكرب، وإفشاء السلام، ودعم الوقف، وتلبية حاجات الناس؛ ومواجهة التحديات والتدافع في كافة المدارات والمسارات (تفعيل الحاجة وتشغيل الطاقة واستثمارات التكامل في عالم الإمكانيات والتكافل الحي بين الأبنية في الأمة والمؤسسات).

-تجفيف منابع الإثم والعدوان: رفض تام لأي شبكات تعاون (مناقضة للقصد أو مضادة لمسارات البر المنتج للخيرات ومدارات التقوى الحضارية المنجزة للإيجابيات)؛ إنها ليست سوى مسارات آثمة أو مدارات عدوانية هادمة لمعمار الوجود أو تظلم الإنسان، راسقاً الحدود الفاصلة بين العمران الحق؛ وخراب الطغيان.

الركن الرابع: هندسة السلوك الإنساني وضبط الوجدان؛ "لَا يَسْخَرُ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ" (الحجرات: 11).

يكتمل المربع بضبط أخلاقي دقيق ينظم حركة السلوك الفردي والجماعي في أبسط تفاصيلها اليومية:

-حراسة الكرامة الإنسانية: إن السخرية، واللمز، والتنازع بالألقاب ليست مجرد آفات أخلاقية صغيرة، بل هي معاول هدم تسحق نسيج الثقة المتبادلة وتفتت روح "الجسد الواحد".

-التزامية المسؤولية الاجتماعية: بناء إنسان سوي، طاهر الباطن، نقي السريرة، يدرك أن أفعاله وكلماته تسهم إما في تمتين البنيان الاجتماعي أو تساهم في تشققه وانهياره.

تمام النسق الحضاري على هدي مربع الآيات، حين تلتئم هذه الآيات الأربع، يشير إلى الاعتصام والوحدة (أصل التأسيس)، والثانية تتعلق بمنع التنازع (درة الانهيار)؛ والثالثة ترتبط بالتعاون على البر (محرك الفاعلية). أما الضلع الرابع المتم والمتمم فإنه يشرع لضبط السلوك وحراسة الكرامة (صيانة الباطن والنسيج الأخلاقي).

هذا المربع يمنح الأمة النسق التشريعي المتكامل لشبكة العلاقات الاجتماعية، مترجمة النظريات الحضارية إلى واقع حي، لتنهض الأمة مستأنفة شهودها التاريخي ك"أمة قطب" و"أمة جامعة"، ترفض كل أشكال الاستبداد والتشتت، وتقيم معمار الوجود على قواعد العدل الشامل، والتدبير الراشد والإحسان الدائب، والأمل الفسيح يتأسس هذا النسق القرآني العظيم على قاعدة كبرى متكاملة البنيات الأساسية التي تُقيم الهيكل وتصون الميزان بالبيانات الرسالية، والنداءات الحركية التي تضخ دماء الحياة والدافعية في الشرايين، وطبقات الخطاب المتنوعة التي تخاطب الوعي الراشد والسعي المسدد والنفس والمجتمع بدقة جراحية متناهية.

-ذروة النهي الحاسم: هندسة الوقاية من التفكك وعلة "ذهاب الريح" في النسق الاجتماعي؛ حين يقف الوعي الحضاري أمام النداء القرآني المانع والمهيب: "وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ" (الأنفال: 46)، فإنه لا يطالع مجرد توجيه أخلاقي عابر، بل يواجه "التنبيه الحضاري الأعظم" الذي يُشخص بدقة مذهلة أقسى أمراض الأمم وأسرعها إيقاعاً بانهيار الكيانات؛ ألا وهو التنازع الداخلي بوصفه المعول الهادم الأشد شراسة في تفكيك نسيج شبكة العلاقات الاجتماعية فـالقرآن الكريم لا يكتفي بالأمر بالبناء والصلة (كالأمر بالاعتصام والتعاون)، بل يعتمد على "تأمين الحراسة" عبر حسم منافذ الوهن والمهانة؛ والانحدار الانكسار، محذراً من أن الشقاق الداخلي ليس مجرد اختلاف في وجهات النظر، بل هو زلزال بنيوي يضرب أساسات العمران فيسقطها.

تشريح علة "التنازع" بوصفه القارض الأكبر للفاعلية؛ إن التنازع (في المفهوم القرآني الحاكم والحكيم) يتجاوز دلالة الخلاف الطبيعي أو التنوع البشري القاصد للإثراء والارتقاء؛ إنه الاشتجار المصلحي الضيق، والتعصب المخل والمضل، وتقاطع الإرادات الذاتية الآتية والأنانية؛ على حساب الغاية الكبرى للاستخلاف والشهود:

-تعطيل طاقات الأمة: بدل أن توجه طاقة المجتمع نحو البناء، والتعاون على البر، وتسيير سفينة النجاة، تستهلكها الصراعات البينية والخصومات الجانبية في استنزاف داخلي عبثي.

-التقاطع مع استراتيجية الطغيان: إن التنازع الداخلي يحقق بدقة مذهلة أهداف الشبكة الفرعونية في "جعل أهلها شيئاً"؛ إذ لا يحتاج المستبد إلى بذل جهد في هدم الصف متى تكفل أهل الصف أنفسهم بتمزيقه من الداخل.

ثنائية الانهيار: "الفسل" و"ذهاب الريح"؛ إذ يربط التوجيه القرآني الرباني بين التنازع ونتيجتين كارثيتين تمثلان قمة التراجع الحضاري:

1-الوقوع في الفشل (شل الحركة والعطالة البنيوية):

الفشل هنا ليس خسارة مؤقتة، بل هو العجز الشامل عن الفعل والتأثير؛ فالجسد الذي تتنازع أعضاؤه يفقد قدرته على الحركة، والبنيان الذي تتباعد لبناته ينهار عند أدنى هزيمة، والسفينة التي يتنازع ركبها على خرقها تغرق حتماً في لجج الضعف والوهن.

-الذهاب الريح (فقدان السيادة وسقوط الهيبة):

إن "الريح" في البيان القرآني هي رمز القوة، والزخم، والدفع الحضاري، وسيادة الإرادة (كما يُقال: أقبلت ربح القوم أي قوتهم وغالبيتهم). فإذا ذهب الريح، تلاشت هيبة الأمة، وسقطت مناعتها، وأصبحت لقمة سائغة لكل قوى الاستلاب والتبعية الخارجية والداخلية.

-تمام الارتباط بنسق شبكة العلاقات الاجتماعية؛ إن هذه الآلية الكريمة تمثل خط الدفاع الأول عن شبكة العلاقات الاجتماعية؛ فيقدر ما تكون الأمة معتمدة بحبل الله، متعاونة على البر، متلاحمة كالبنيان والجسد، بقدر ما تتعاضد "ريحتها" وتستنفذ فاعليتها^[١] وحين تترسخ هذه الذروة في النهي في وعي المجتمع، يدرك الأفراد أن وحدة الصف ليست خيارًا ترفيلاً، بل هي شرط الوجود الأبدي لتجنب الفشل وذهاب الريح، واستئناف الشهود الراشد في معمار الوجود بكل اقتدار وثبات.

البنيات الأساسية للشبكة الاجتماعية (معمار الاستقرار والتماسك): تقوم هندسة الشبكة الاجتماعية في القرآن الكريم على أصول بنيوية محكمة تحمي الكيان من الانهيار، وتتجلى في مراتب ثلاث:

الأولى: مربع الآيات الحاكم (دستور الوصل والدرء):

-قانون الاعتصام: "وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا" (آل عمران: 103)؛ رابطاً وحدة الأمة بالمرجعية الإلهية المطلقة لا بالاستبعاد البشري.

-الحراسة الاستراتيجية: "وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ" (الأنفال: 46)؛ درءاً لقارض التنارع الذي يبتلع طاقة الأمة ويسقط هيبتها.

-المحرك المدني والحضاري: "وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَتَقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ" (المائدة: 2)؛ توجيهًا للطاقة نحو البناء وتجفيفًا لمنايع الإفناء.

-ضبط الوجدان والسلوك: "لَا يَسْخَرُ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ" (الحجرات: 11)؛ حراسةً للكرامة الإنسانية من معاول الهدم المعنوي.

الثانية: الأمثال والنماذج الحركية الحية (التجسيد البصري والوظيفي) (المفاهيم النبوية الشبكية):

-هندسة الجسد الواحد: تداعي الأعضاء بالحمى والسهرة (التضامن العضوي الشامل).

-البنيان المرصوص: تشابك الأصابع واللبنيات (توزيع الأعباء واستقامة الموقف).

-سفينة المصير المشترك: حراسة الحدود ورفض الخرق (المسؤولية التضامنية الشاملة).

الثالثة: المؤسسات الوقفية والتكافلية:

-تحويل القيم الأخلاقية إلى هياكل اقتصادية واجتماعية مؤسسية مستدامة (حبس الأصل وتسييل المنفعة لعموم الخلق، شبكة العلاقات الوقفية) لكسر احتكار الثروة ومواجهة النماذج القارونية المغترة الطاغية.

النهوض الراشد يرتبط إذا بمثلث التمكين والتأسيس؛ إن استعادة فاعلية شبكة العلاقات الاجتماعية في الأمة المعاصرة لا تكتمل إلا بالارتكاز هذا المثلث المكين على طريق التمكين: "مرجعية الوحي العتيد"، الأقومية القرآنية وبوصلة الهداية؛ "الوعي الجمعي الرشيد" بإدراك حقيقة السفينة والجسد ومحاربة أوهام الفردية؛ "السعي الجماعي السديد" بتحويل القيم إلى مؤسسات وقفية وجهاد شبكي مستدام^[٢] بذلك تخرج الأمة من شرك الوهن العنكبوتي واستبداد الفرقة والتفريق الفرعوني، لتستأنف شهودها التاريخي كـ"أمة قطب" تمنح الإنسانية نموذج العدل والرحمة والإحسان^[٣]